Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 4:4 (1969)

الشيخ الطوسى و منهجه فى تفسير القرآن

للأستاذ سعيد أحمد اكبر آبادى

ان الله تعالى قد بعث محمدا صلى الله عليه وسلم ليتلو على الناس آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب و الحكمة ليهتدوا الى طريق الرشد و الصواب و يخرجوا من ظلمات الجهل و الضلال التى قد أحاطت بهم من كل جانب حتى انغمسوا فيها ، و ذلك قبل بعثته فكانت رسالته صلى الله عليه وسلم رسالة شاملة استكمل به الدين القيم.

و كانت حياته صلى الله عليه وسلم حياة طيبة طاهرة أدت وظيفتها على نهج حسن و شكل زاه استضاء بها العالم الانسانى الحيوى كله حتى ان تم له النجاح. فلم يلبث أن ارتحل عن العالم و لقى ربه راضيا مرضيا. و كما انه كان خاتم النبيين لا نبى بعده كذلك القرآن الذى نزل عليه كان خاتما للكتب الالهيه الذى لا كتاب بعده. فبصفة ان القرآن كتاب خالد الى جانب رسالته الخالدة قضى ربنا ان يتيسر له علماء بارعون و رجال راسخون فى كل عصر من العصور لتشييد أركان الاسلام حتى لا تبلى حيويته. و تلك هى عادة جارية و سنة الهية مستمرة لا تتبدل و لا تتغير. و قد ظهر للاسلام قديما و حديثا ان كان له من احكم من الدين ما تشابهت و أصلح ما تضعفت و مازال جهابذة العلماء و فطاحلهم مستمرين فى استخراج المعانى و استنباط الاحكام مهما دعت الحاجة و تجددت المشاكل فكانوا يدافعون عن الدين و يذودون عن الاسلام و المسلمين.

أولئك العلماء الكبار يفضل بعضهم على بعض و تلك الشخصيات التاريخية الكبرى تمتاز على شخصيات عصرهم بميزات خاصة و بمواهب و كفاآت تكسب لهم القيادة و الزعامة فيكونون ائمة علماء الاسلام

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

و قادة الفكر الاسلامى.

فلا يخفى على من له المام بتاريخ النبوغ الفكرى فى الاسلام أن شيخنا شيخ الطائفة أبا جعفر محمد بن الحسن الطوسى كان من أمثال أولئك الاعلام المجتهدين المجددين الذين يتأسى بهم العلماء و يقتدى بهم الحكماء. و مما لا مساغ فيه للشك انه كان رجلا موهوبا و علما فردا و آية من آيات الله البالغة و حجة من حججه الكاملة.

و للشيخ مصنفات كثيرة فى كل علم من العلوم الاسلامية و الآداب العربية و فنونها. كما ان له رسائل مختصرة حول مواضع خاصة. و نخص بالذكر تفسيره الذى سماه ''التبيان فى تفسير القرآن'' و هو تفسير عظيم قال فى وصفه أمين الاسلام الطبرسى المتوفى سنة ٥٤٨ هجرية فى مقدمة كتابه الجليل ''مجمع البيان فى تفسير القرآن'' ص ١٣ : كتاب يقتبس منه ضياء الحق ، و يلوح عليه رواء الصدق و قد تضمن من المعانى الأسرار البديعة و احتضن من الفاظ اللغة الوسيعة و لم يقنع بتدوينها دون تبيينها و لا بتنسيقها دون تحقيقها و هو القدوة استضئ بأنواره و أطأ مواقع آثاره''

و بعد فأتقدم إليكم أيها السادة بمقالتى هذه حول موضوع ''منهج الشيخ الطوسى فى تفسيره'' و خصائصه التى تميز عن سائر كتب التفسير التى بين أيدينا و قبل البدء فى الحديث ، يجب علينا ان نناقش معنى التفسير و أهميته ثم نشؤه و تطوره فى مختلف الأدوار و العصور منذ بدايته حتى عصر الشيخ الطوسى فان الأشياء تتبين بأمثالها كما تتبين بأضدادها.

لا يخفى على من له بصيرة فى العلوم الاسلامية أن علم التفسير هو أشرف العلوم منزلة و أعلاها قدرا و أسناها أبهة و أوسعها نطاقا — و كيف لا — و هو علم يتعلق بالقرآن الذى قال الله فيه : ''و انه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد'' و جاء فى موضع آخر : ''كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته

و ليتذكر أولوالألباب''.

فالقرآن كتاب الله المهيمن الذى يشتمل على الحقائق الكونية و الأسرار العالمية ، إلى جانب ما فيه من الأوامر و النواهى و القوانين لحياة الفرد و الجماعة ، و أسرار التشريع : و قصص الاولين و الآخرين بصفة انه كلام الله لفظا و معنى و قد بلغ أقصى مراتب الاعجاز الذى لا يمكن ادراك كنهه إلا للراسخين فى العلوم و الموفقين من الله. و هو كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : فيه نبأ ما كان قبلكم و خبر ما بعدكم و حكم ما بعدكم . فهو الفضل ليس بالهزل ، من تركه من جبّار قصمه و من ابتغى الهدى من غيره أضله الله. و هو حبل الله المتين ، و الذكر الحكيم و الصراط المستقيم الذى لا تزيغ به الأهواء ، و لا تلتبس به الألسنة ، و لا تشبع منه الحكماء ، و لا يخلق على كثرة الرد ، و لا تنقضى عجائبه و هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى نطقت : ''إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد'' فمن قال به صدق و من عمل به أجر و من حكم به عدل ، و من دعا اليه هدى الى صراط مستقيم''.

و لقد كان القوم عربا خلصا إذا سمعوا القرآن من النبى صلى الله عليه و سلم وعوه و حفظوه مدركين معانيه و مراميه على طبيعتهم العربية و استعدادهم الذهنى . وكلما خفيت عليهم معانى بعض النصوص و دقت مراميها رجعوا فيها إلى صاحب الوحى ''محمد'' صلى الله عليه وسلم فكان صلى الله عليه و سلم يكشف لهم ما دق عن أفهامهم و يبين لهم ما خفى عن ادراكهم ، كما أشار الى ذلك بقوله تعالى : ''و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم و لعلهم يتفكرون''.

أما الصحابة فلم تكن جماعتهم كلها سواسية فى ادراك معانى القرآن و البلوغ إلى حقائقه و مراميه و ليس بصحيح ما قاله ''ابن خلدون'' من : ''ان القرآن منزل بلغة العرب و على أساليب بلاغاتهم

فكانوا كلهم يفهمونه و يعلمونه فى مفرداته و تراكيبه'' و الأستاذ ''أحمد أمين'' يقول ردا عليه : ''ان نزول القرآن بلغة العرب لا يقتضى ان العرب كلهم يفهمونه فى مفرداته و تراكيبه لان فهم الكتاب لا يتطلب اللغة وحدها و انما يتطلب درجة عقلية خاصة تتفق و درجة الكتاب فى رقاه.

هكذا كان موقف العرب من فهم معانى القرآن ، و من أجل ذلك أثنى الله تعالى الراسخين فى العلم حيث قال : ''و ما يعلم تأويله إلا الله و الراسخون فى العلم يقولون آمنا به'' انما كانوا يختلفون فى مقدار فهمه حسب استعدادهم العقلى و صحبتهم مع الرسول صلى الله عليه و سلم و درجة اكتسابهم الفيض منه ، فضلا عن فهم القرآن اجمالا و تفصيلا. إن ألفاظ القرآن نفسها لم يكن العرب كلهم يفهمون معناها ، كما لم يدع أحد أن كل فرد من هذه الأمة يعرف جميع ألفاظ القرآن و لغاته. حسبنا على ذلك ما روى عن أنس بن مالك أن رجلا سأل عمر بن الخطاب عن قوله تعالى (و فاكهة و أبّا) ما الأبّ ؟ فقال عمر نهينا عن التكلف و التعمق. و ما روى عن عمر أيضا انه كان على المنبر فقرأ ''أو يأخذهم على تخوف'' ثم سأل عن معنى التخوف فقال له رجل من هذيل : التخوف عندنا التنقص ثم أنشد :

تخوّف الرحل منا تاركا قردا كما يتخوف عود النبعة السفن

و فوق ذلك ففى القرآن آيات كثيرة لا تكفى معرفة معانى اللغة و أساليبها فى فهمها مثل : ''و العاديات ضبحا'' ، و الذاريات ذروا'' و ما المراد بالليالى العشر فى قوله تعالى : ''و الفجر و ليال عشر''؟ و ما المراد بليلة القدر؟ و ما إلى ذلك من أمثلة كثيرة. على أن فيه اشارات كثيرة إلى ما جاء فى التوراة و الانجيل ردا على أهل الكتاب. فواضح أنه لا يكفى فى فهمها معرفة اللغة. فنحن نرى فى عهد النبى صلى الله عليه و سلم أنه عرضت عليهم مشكلة فى فهم المراد لآية

أو معنى مراد للفظ خاص رجعوا فيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتارة فسر الله ما أشكل عليهم بالوحى وفاءاً بوعده حيثما قال : ''لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه و قرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه'' . كما فى آية ''حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود''. بلفظ ''من الفجر'' و تاره شرح النبى صلى الله عليه و سلم بنفسه مشكل الآية و كشف القناع عن غموض وجهها إما بآية أخرى نزلت من قبل كما فعل فى ''و لم يلبسوا إيمانهم بظلم'' حيث فسرها بآية ''ان الشرك لظلم عظيم'' فى كلماته الطيبة الطاهرة .

فالصحابة قد حفظوا كل ما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه و سلم من تفسير القرآن و لكنهم كانوا أشد احتياطا فى أن يقولوا فى القرآن شيئا برأيهم ، لذلك اشتهر عدد قليل منهم بالقول فى تفسير القرآن و أكثر من روى عنه فى هذا الباب : على بن أبى طالب، عبدالله بن عباس، عبدالله بن مسعود و أبى بن كعب - و أقل الناس رواية فى ذلك : زيد بن ثابت ، أبو موسى الأشعرى و عبدالله بن زبير .

فلما انقضى عصر الصحابة و صار الأمر الى تابعيهم و انتشر الاسلام و اتسعت الأمصار و تفرقت الصحابة فى البلدان النائية و حدثت الفتن و اختلفت الآراء ، أخذ التابعون باحسان فى تدوين ما حفظوه من الصحابة فى تفسير القرآن فمن أقدم التفاسير ، تفسير أبى العالية رفيع بن مهران الرياحى (م ٩٠ ه) الذى رواه ربيع بن أنس عنه ثم تفسير مجاهد بن جبير (م ١٠١ ه) ثم تفسير عطاء بن أبى رباح (م ١١٣ ه) ثم تفسير ''محمد بن كعب القرظى'' (م ١١٢ ه) و هؤلاء المفسرون فى عهد التابعين قد انقسموا إلى ثلاث طبقات :

أوليها طبقة المفسرين بمكة المكرمة : و هم تلاميذ ''عبدالله بن عباس'' المتوفى سنة ٦٨ هجرية بالطائف و هو الذى قد أشهر بترجمان القرآن و حبرالأمة و رئيس المفسرين دعاله الرسول صلى الله

عليه وسلم : ''اللهم فقهه فى الدين و علّمه التأويل''.

فمنهم ''مجاهد بن جبير المكى'' (م ١٠٣ هـ) و سعيد بن جبير (م ٩٤ هـ) و عطاء بن أبى رباح (م ١١٤ هـ). و ثانيتها المفسرون بالكوفة : و هم تلاميذ عبدالله بن مسعود الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : ''من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد'' (م ٩٥ هـ) — مثل الشعبى (م ١٠٥ هـ).

و ثالثتها مفسرو المدينة المنورة : هم أصحاب ''زيد بن أسلم العدوى'' منهم : ''مالك بن أنس'' (م ١٧٩ هـ) و ''الحسن البصرى'' (م ١٢١ هـ) و ''عطاء بن أبى سلمة ميسرة الخراسانى'' و ''قتادة بن دعامة السدوسى'' (م ١١١ هـ) و ''السدى'' و غيرهم فهؤلاء قد لقّبوا بقدماء ''المفسرين''.

بعد انقضاء هذا العصر جاء أتباع التابعين فكرسوا هممهم فى جمع ما روى فى تفسير الآيات عن رسول الله صلى الله عليه و سلم و الصحابة و التابعين و لم يفرقوا بين روايات طبقة و طبقة أخرى من الطبقات الثلاث التى اشتهرت فى عصر التابعين فكانت كتبهم مجموعة من الروايات و العلوم الواردة فى الأسفار الماضية و الكتب السابقة. و اشتهر من بينهم : شعبة بن الحجاج (م ١٦٠ هـ) و سفيان بن سعيد الثورى (م ١٩٨ هـ) و وكيع بن الجراح (م ١٩٧ هـ) و سفيان بن عيينة (م ١٩٨ هـ) و يزيد بن هارون (م ٢٠٦ هـ) ، و اسحق بن راهويه (م ٢٣٨ هـ). و مع الأسف أنه لا يوجد أى كتاب اليوم فى تفسير القرآن لأحد من هذه الطبقة العليا إلا أن أبا جعفر ابن جرير الطبرى (م ٣١٠ هـ) قد جمع لنا أكثر مروياتها.

و يسرنى أن أذكر ههنا أن المخطوطة الوحيدة فى العالم لتفسير سفيان الثورى التى كانت مخزونة فى مكتبة رام فور بالهند — و هى من أشهر المكتبات العالمية لاحتوائها على مخطوطات كثيرة نادرة

الوجود فى العلوم الاسلامية و الشعر العربى و آداب اللغة العربية و الفارسية و الأردوية —قد ظفر بهذه المخطوطة الأستاذ المحقق و البحاثة المدقق ''الشيخ امتياز على عرشى'' أمين المكتبة فنشرها مع تحقيقها و تحليتها بالتعليقات عليها و رتبها على أحسن ترتيب بمساعدة وزارة المعارف الهندية.

من هنا كانت بداية التدوين للتفسير الاسلامى ، و ذلك فى أواخر دولة بنى أمية و بداية الدولة العباسية ، و لكن مع ملاحظة الأمرين الهامين الذين يجب على الباحث مراعاتها.

الأوّل : أن التفسير منذ بداية أمره حتى العصر الذى ذكرنا لم يكن علما خاصا و فنا مستقلا بل كان جزءا من الحديث و بابا منه ، فقد كان الحديث هو المادة الوحيدة الواسعة التى شملت جميع العلوم و المعارف الاسلامية تقريبا ، فكان شاملا للتفسير و التشريع و التاريخ و كانت العلوم كلها ممزوجة بعضها ببعض كما يمثل ذلك بعض كتب الحديث كالبخارى ، فنرى فيه بابا خاصا للتفسير فهؤلاء العلماء كانوا فى عصر التابعين و بعدهم أئمة للحديث أصلا و رأسا . و أما اشتغالهم بالتفسير الاسلامى فكان تبعا للحديث.

الثانى : أنهم صنفوا كتبهم فى التفسير مختصرة جدا ، و لم يفسروا آية و لم يرتبوها ترتيبا يوافق نظم القرآن و ترتيبه ، و لم يكن لهم فى ذلك إلا مصدرين اثنين : (الف) الروايات التفسيرية التى أخذوها عن شيوخهم و أساتذتهم. (ب) اجتهادهم و ذوقهم ، مثل ما نرى ''سفيان الثورى'' فى تفسيره المطبوع الذى مر ذكره آنفا يفسر قوله تعالى : ''هؤلاء بناتى هن أطهر لكم'' بقوله : عن مجاهد فأما لوط لم تكن له إلابنتان.

ثم جاء عهد انفصل فيه التفسير عن الحديث ، و صار علما

مستقلا غير تابع له ، و فسر القرآن آية آية على ترتيب المصحف و لكن من الصعب على الباحث تعيين المفسر الأول و تسمية على سبيل القطع من فسر القرآن على هذا المنهاج .

نعم : نجد فى الفهرست لابن النديم أن أبا العباس ثعلب قال : كان السبب فى إملاء كتاب الفراء فى المعانى أن عمر بن بكير كان من أصحابه و كان منقطعا إلى الحسن بن سهل فكتب إلى الفراء أن الأمير الحسن بن سهل ربما سألنى عن الشئ بعد الشئ من القرآن فلا يحضرنى فيه جواب فان رأيت أن تجمع فيه أصولا أو تجعل فى ذلك كتابا أرجع اليه فعلت. فقال الفرّاء لأصحابه : اجتمعوا أملى عليكم كتابا فى القرآن ، و جعل لهم يوما فلما حضروا خرج اليهم . . .

و اعتمادا على هذه الحادثة ظن بعض الباحثين أن ''الفراء'' هو أول من صنف كتابا على منهجه الجديد غير تتابع للحديث. و هذا الرأى ليس بصحيح عندنا لأننا لا نجد فرقا واضحا بين ''معانى القرآن'' للفراء و بين ''مجاز القرآن'' لأبى عبيدة .

و مهما كان فان التفسير فى هذا العصر صار فنا مستقلا و موضوعا هاما على أيدى طائفة من العلماء منهم : ابن ماجة (م ٢٧٣ﻫ) ، و ابن جرير الطبرى (م ٣١٠ﻫ) ، و أبوبكر بن المنذر النيسابورى (م ٣١٨ﻫ)، و ابن أبى حاتم(م ٣٢٧ﻫ) و أبو الشيخ بن حبان (م ٣٦٩ﻫ) و الحاكم (م ٤٠٥ﻫ) ، و أبوبكر بن مردوية (م ٤١٠ﻫ) و غيرهم من الائمة الذين شأنهم هذا الشأن و هذه التفاسير كلها كانت مروية بالاسناد إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم و إلى الصحابة و التابعين ، و تابعى التابعين و لم يكن فيها شيئ سوى التفسير المأثور. اللهم إلا تفسير ابن جرير الطبرى فانه ذكر الأقوال التى وردت ، ثم ناقشها و رجح بعضها على بعض ، و زاد على ذلك بحث الاعراب

ان دعت اليه الحاجة و استنبط الأحكام التى يمكن ان تؤخذ من الآيات القرآنية و سنفرد لهذا الموضوع بحثا مستقلا ، هذا ما ذكرنا فى هذه العجالة باختصار من تفاسير أهل السنة. فلنذكر الآن تفاسير الشيعة حتى العصر الذى نحن بصدد مناقشته. يقول المحقق الجليل و الباحث الكبير الشيخ آغا بزرك تهرانى فى ''الذريعة إلى تصانيف الشيعة'' فى المجلد الرابع تحت عنوان ''التفسير'' : أول من صنف فى التفسير هو ترجمان القرآن عبدالله بن عباس المتوفى سنة (٦٨ هـ) ثم تلميذه سعيد بن جبير الشهيد (م ٩٥ هـ) و هكذا إلى اليوم ، بل لم يكتف كثير منهم بتأليف واحد حتى ضم اليه كتابا آخر أو أكثر . . .'' ثم ذكر الشيخ بعض هؤلاء المفسرين مرتبا على أسمائهم اجمالا و ذكر تفاصيل تصانيفهم فى مواضعها و لكن الذى يهمنا و يجدرهنا بالذكر هى تفاسير الشيعة التى صنفت فى المائة الأولى و الثانية و الثالثة.

فمنها تفسير أبان بن تغلب بن رباح (م ١٤١ هـ) الذى كانت له مكانة عظيمة لدى الأئمة الطاهرين. و لم يكتف بتفسير واحد بل كما قال الشيخ آغا بزرك الطهرانى نقلا عن ابن النديم — انه صنف أربعة كتب فى القرآن.

و منها تفسير آيات الأحكام للشيخ الأمين الوزير أبى الحسن عباد بن عباس بن عباد الطالقانى (م ٣٨٥ هـ) قال أبو الفرج ابن الجوزى فى كتابه ''المنتظم'' : ان أبا الحسن عباد صنف كتابا فى أحكام القرآن نصر فيه الاعتزال وجوّد فيه.

و منها تفسير الآى التى نزلت فى أقوام بأعيانهم لهشام بن محمد بن السائب الكلبى .

و منها تفسير آيات الاحكام لمقاتل بن سليمان ، و تفسير

ابن أبي الثلج : و هو أبوبكر محمد بن أحمد المتوفى سنة ٣٢٥ هجرية ، و غيرها من التفاسير الكثيرة التى أحصاها العلامة الشيخ آغا بزرك الطهرانى فى ''الذريعة إلى تصانيف الشيعة''.

أما هذه الكتب فلم تطبع منها إلا نزر يسير. منها تفسير لفرات بن ابراهيم بن فرات الكوفى من رجال القرن الثالث الهجرى ، و منها تفسير القمى على بن ابراهيم. أما التفسير المنسوب إلى الامام الحسن العسكرى فكما أوضحه المحقق العلام و البحر الطمطام الشيخ محمد جواد البلاغى النجفى فى رسالته له تختص بشأنه ثم صرح فى مقدمة تفسيره : أنه مكذوب و موضوع .

هذه التفاسير كلها كانت على نهج تفاسير أهل السنة من حيث كونها تفسيرا بالمأثور و لكن الآثار و الروايات ليست عامية بل هى مختصة بأهل البيت الكرام رضى الله عنهم — أو بمن كانت صلته بهم من الصحابة : امثال ''أبى هريرة'' و ''مقداد بن أسود'' و ''سلمان الفارسى'' و غيرهم. و مما ينبغى أن لا يفوتنا ذكره هنا ، ان تلك التفاسير كانت محتوية على كل من رطب و يابس و غث و سمين . فان الروايات و الآثار الواردة فيها ليست كلها صحيحة بل هى مزيج من الصحيح و السقيم مشتملة على روايات اسرائيلية لأسباب رئيسية تاريخية لا موضع لذكرها فى هذه العجالة.

و لنذكرهنا أن تدوين علوم اللغة و النحو و ترجمة العلوم العقلية و الفلسفة الاغريقية إلى اللغة العربية فى العصر العباسى الأول ، و إثارة المسائل الكلامية ، و نشأه المدارس الفكرية : كالأشاعرة ، و المعتزلة و القدرية ، و الجبرية ، و الماترّدية و غيرها قد أثر فى علم التفسير أثرا كبيرا و جعل أصحاب المذاهب يفسرون القرآن طبقا لعقائدهم و أفكارهم الدينية .

فالنحويون جعلوا القرآن مادة لاشتقاق قواعدهم و توضيحها بالأمثلة و أعربوا القرآن إعرابا يعين على فهم القرآن. و اللغويون بحثوا فى كتبهم عن غرائب القرآن. و أما المؤرخون فاستمدوا منه بما وصل إليه علمهم من التاريخ فى تفسير الآيات التى جاء فيها ذكر الأقوام و الملل.

و من الطبيعى أن طريقة كهذه لا ترضى ذاك، فمثل هذه النزعات الحديثة فى التفسير قد سببت للنزاع بين المحدثين و المتكلمين و بين فرقة و فرقة حتى أن ابن قتيبة قال فى المتكلمين ''و فسروا القرآن بأعجب تفسير يريدون أن يردوه — أى القرآن — إلى مذاهبهم و يتحملون التأويل فى هذا السبيل''.

و لاشك اذ هذه الاتجاهات غذت التفسير بأنواع من الفنون كما أن النقول التى رويت عن الصحابة و التابعين و من بعدهم، و العلوم التى دوّنت فى العصر العباسى و ابتكرت من نحو، و صرف و بيان، و فقه، و حديث و تاريخ و كلام كلها أعانت على توسيع مجال التفسير و خدمته.

و لاشك أن الممثل الحقيقى للتفاسير كلها من بين سائر الكتب هو تفسير أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى الإمام الجليل، المجتهد المطلق، ذو التصانيف العلمية، المشهورة بغزارة موادها و ضخامة مجلداتها.

ولد صاحبنا هذا ''بآمل، طبرستان'' فى سنة ٢٢٤ هجرية، و غادر بلاده فى طلب العلم و هو ابن اثنى عشر سنة، و طاف بالاقاليم فسمع بمصر و الشام و العراق، ثم ألقى عصاه و استوطن ببغداد، و أقام فيها حتى أن مات سنة عشر و ثلاثمائة.

و الواقع أنه كان رحمه الله من أعظم رجال العلم فى الإسلام

على مر العصور و الأزمان. و تفسيره من أهم مصنفاته قدرا و منزلة. فقد جمع فيه كثيرا من مجموعات التفاسير التى سبقته و فاضل بين رواياتها و اختار أمثلها. جاء فيه بما روته مدرسة ابن عباس، و مدرسة على بن أبي طالب و ابن مسعود و أبي بن كعب. و استفاد مما جمعه ابن جريج و السدى، و ابن اسحق فى التفاسير ثم زاد على ذلك بما وصل اليه العلم فى عصره من إعراب و تفسير. و قد نراه يأتى بنقول الصحابة و التابعين فى التفسير، و يناقش الأقوال، و يرجح بعضها على بعض ترجيحا يعتمد على النظر العقلى و البحث الحر الدقيق. و يستنبط الاحكام التى يمكن أن تؤخذ من الآية مع توجيه الأدلة و ترجيح ما يختار. و يخاصم أصحاب الرأى المستقلين، فى التفكير، و لا يزال يلح على العلم الثابت من الصحابة و التابعين. و المنقول عنهم صحيحا مستفيضا.

و يذكر القراءات و ينزلها على المعانى المختلفة، و لعل اهتمامه بالقراءات كان مبنيا على أنه كان من كبار العلماء فى هذا الفن و قد قيل عنه: أنه ألف فى القراءة مؤلفا خاصا فى ثمانية عشر مجلدا جمع فيه كل القراءات الواردة فى القرآن على وجه من الوجوه، و الشواذ كذلك و عالجها متفرقه بالنقد و التمحيص.

و فى ختام كل موضوع يعقب الطبرى بالقول المفصل سواء فيما يتعلق باختلاف القراءات أو باختلاف وجوه التفسير.

و يتوسع كذلك فى استخدام المصادر اليهودية "روايات كعب الأحبار و وهب بن منبه" فيما يتعلق اسرائيلية. و لم يكن فى ذلك لينال موافقة سلفه، الذين سبقوه ضربة لازب، بل كتابه أعزر الكنوز بالنصوص المنتشرة فى الأوساط الإسلامية، من الإسرائيليات و يرى ابن خلدون أن من تناول هذه الأخبار بالنقد هو المفسر الأندلسى، كذلك يروى الطبرى الأساطير النصرانية راجعا إلى وهب بن منبه.

و الى جانب النقل ، يعتد ابن جرير الطبرى بالاستعمال اللغوى فهو عنده أوثق المراجع فى تفسير العبارات المعقّدة ، و فى كثرة استخدامه للشواهد من الشعر العربى القديم قد سبق قصب السبق غاية المدى متابعا فى توجيهها راجعا الى ابن عباس. و كذلك يكون بعيد المدى فى استقصاءاته النحوية التى تناول فيها على وجه التفصيل بحث الظواهر اللغوية تبعا لمختلف مدارس النحو البصرية و الكوفية. حتى أن كتابه يعد من أقدم المصادر لاحتوائها على المعارف النحوية و معرفة قدرها حق قدرها.

إذن فتفسير ابن جرير الطبرى يعتبر من أقدم التفاسير و أشهرها ، كما يعتبر المرجع الأول للمفسرين الذين عنوا بالتفسير المأثور ، و ان كان فى الوقت نفسه يعتبر مرجعا من مراجع التفسير العقلى أيضا ، و هو يقع فى ثلاثين جزاء من الحجم الكبير.

و يجدر بنا بهذه المناسبة أن نذكرهنا بعض التفاسير الأخرى التى صنفت بعد تفسير ابن جرير الطبرى و قبل الشيخ الطوسى.

فمنها تفسير القرآن المسمى بـ ''بحر العلوم'' المعروف بتفسير أبى الليث السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٥ هجرية و هذا التفسير كما يذكر الأستاذ محمد حسين الذهبى فى المجلّد الأول من كتابه ''التفسير و المفسرون''— مخطوط فى ثلاث مجلدات كبار محفوظة بدار الكتب المصرية. ثم يتحدث الذهبى عن هذا التفسير و يقول : ''تتبعت هذا التفسير فوجدت صاحبه يفسر القرآن بالمأثور عن السلف فيروى الروايات عن الصحابة و التابعين و من بعدهم فى التفسير ، و لكنه لا يذكر اسناده إلى من يروى عنه ، و يندر سياقه للاسناد فى بعض الروايات ، و إذا ذكر الأقوال و الروايات المختلفة لا يعقّب عليها و لا يرجّح كما يفعل ابن جرير الطبرى ، و يعرض للقراءات و لكن بقدرما كما أنه

يحتكم الى اللغة أحيانا و يشرح القرآن بالقرآن إن وجد من الآيات القرآنية ما يوضّح معنى آية أخرى و يروى من القصص الاسرائيلية و لكن على قلة و بدون تعقيب على ما يرويه و يروى احيانا عن الضعفاء فيخرج من رواية الكلبى ، و من رواية أسباط عن السدى ، و من رواية غيرهما ممن تكلم فيه ثم يقول فى ختام الكلام : و بالجملة فالكتاب قيّم فى ذاته جمع فيه صاحبه بين التفسير بالرواية و التفسير بالدراية إلا أنه غلب الجانب النقلى فيه على الجانب العقلى .

و منها ''الكشف و البيان عن تفسير القرآن'' للثعلبى المتوفى سنة ٤٢٧ هجرية ، و هو موجود غير كامل مخطوط فى أربع مجلدات تحفظ فى مكتبة الأزهر ، و المجلد الرابع ينتهى عند أواخر سورة الفرقان و باقى الكتاب مفقود لم يعثر عليه الأستاذ محمد حسين الذهبى .

و يبدو مما قال الأستاذ عن كيفية هذا التفسير بأنه صنف على نهج ابن جرير الطبرى .

و حان لنا أن نتحدث عن تفسير شيخ الطائفة الشيخ الطوسى رحمه الله و قدس سره فقد ألقى الشيخ نفسه ضوءاً على تفسير فى مقدمة الكتاب و أوضح فيها عن دأبه و الطريقة التى سلكها فيه يقول : فان الذى حملنى على الشروع فى عمل هذا الكتاب أنى لم أجد أحدا من أصحابنا — قديما و حديثا — من عمل كتابا يحتوى على تفسير جميع القرآن و يشتمل على فنون معانيه . . . . . فوجدت من شرع فى تفسير القرآن من علماء الأمة ، بين مطيل فى جمع معانيه و استيعاب ما قيل فيه من فنونه — كالطبرى و غيره و بين مقصر اقتصر على ذكر غريبه و معانى ألفاظه ، و سلك الباقون المتوسطون فى ذلك مسلك ما قربت فيه سنتهم ، و تركوا ما لا معرفة لهم به . . . و منهم من أضاف الى ذلك الكلام فى فنون علمه فأدخل فيه مالا يليق به من بسط فروع الفقه ، و اختلاف الفقهاء . . . و سمعت جماعة من أصحابنا قديما و حديثا —

يرغبون فى كتاب مقتصد يجتمع على جميع فنون علم القرآن من القراءة ، و المعانى ، و الإعراب ، و الكلام على المتشابه ، و الجواب عن مطاعن الملحدين فيه ، و أنواع المبطلين ، و ذكر ما يختص أصحابنا به من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحة مذاهبهم فى أصول الديانات ، و فروعها . و أنا إن شاء الله تعالى أشرع فى ذلك على وجه الايجاز والاختصار بكل فن من فنونه ، و لا أطيل فيملّه الناظر فيه ، و لا أختصر اختصارا يقصر فهمه عن معانيه . . . ثم هو يتعرض فى مقدمته لأمور شتى كا المبادئ لتفسير القرآن .

ففى بداية الأمر يقول فى زيادة القرآن و نقصانه : ''و أما الكلام فى زيادة القرآن و نقصانه فمما لا يليق به لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها ، و النقصان منه ، فالظاهر أيضا من مذاهب المسلمين خلافه و هو الأليق بالصحيح من مذهبنا ، و هو الذى نصره المرتضى رحمه الله ، و هو الظاهر فى الروايات غير أنه رويت روايات كثيرة من جهة الخاصة و العامة بنقصان كثير من آى القرآن ، و نقل شيئى منه من موضع إلى موضع ، طريقها الاحاد التى لاتوجب علما و لا عملا ، و الأولى الإعراض عنها و ترك التشاغل بها لأنه يمكن تأويلها .

و قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ''ما نزل من القرآن من آية إلا و لها ظهر و بطن'' فلا يخفى على أهل النظر و البصيرة فى تفاسير القرآن أن بعض أهل الأهواء و الأمراء فسر القرآن على ما تستهويه أنفسهم راغبين عن طريق الحق و السداد ، منتشطين من هذه المقولة المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكثرت فى شرحها الأقوال و تشاغبت فيما بينها . و أما الشيخ الطوسى فقد نقل أقوالا عديدة و لم يقل شيئا عن نفسه فى هذا الباب إلا أنه أشار إلى أن الأمر نفسه ليس بمهم . و تكلم فى المقدمة حول رواية نزول القرآن على سبعة أحرف ، و النسخ و الفصاحة و التكرار ، و المحكم ، و المتشابه

فى القرآن. ففى كل باب جاء بكلام موجز غير مطنب وافيا للمراد. هذه هى المقدمة :

اما تفسيره فبصفة كونه بحرا ضخما للعلوم القرآنية أصلا و فرعا. فهو موسوعة قيّمة لا يتأتى مثله فى سالف الزمان و أنه لم يكتف بنقل أقوال من مضى قبله فحسب بل ينقد الأقوال و يميز بين الصحيح والسقيم ببصيرة فنيّة كاملة ، و ملكة موهوبة حتى أنه يثبت ما هو حق لديه بدلائل قاطعة و براهين ساطعة ، و بجانب ذلك يفنّد و يدحّض ما هو ليس بحق فى رأيه بقوة و سلطة علمية منحها الله إياه.

أما دأبه فى التفسير فهو يبحث عن إسم السورة ويأتى بأقوال عديدة بدلائلها و براهينها رواية و لغة ثم يستأثر منها قولا أو يأتى برأى جديد من عند نفسه و يبين وجوه ترجيحه ثم يأخذ فى شرح الكلمات اللغوية و أصولها و تصاريفها و يستشهد على ما يقول بالشعر العربى مرة بعد مرة ، فيرجع الى معنى الآية و تفسيرها فيذكر أولا الأقوال المأثور عمن سلف أو الأحاديث المروية عن النبى صلى الله عليه و سلم أو أهل البيت أو الصحابة أو من دونهم من التابعين باسانيدها ثم يتحاكم بين الروايات إن كانت متعارضة بعضها ببعض و يتكلم عن الأحكام الفقهية التى يمكن استنباطها من الآية المتعلقة بها بشئ من التفصيل و الإسهاب و كذلك يعرض للمسائل الكلامية ان نشأت منها فيرد على أهل الزيغ و الضلال. و فى مواضع غير قليلة يشرح القرآن بالقرآن إن وجد من الآيات القرآنية ما توضح آية أخرى كما يروى من الحكايات الإسرائيلية عن طرق مختلفة ، فأحيانا يأتى بالتعقيب عليها و أحيانا تركها دون التعليق. و يوضح بعض أسئلة ترد على ظاهر النظم ثم يجيب عنها كما يتعرض لوهم الاختلاف و التناقض فى القرآن و يزيل هذا الايهام ففى كل موضع من هذه المواضع له موقف خاص به و ناهيكم بها بعض الأمثلة.

نجد الشيخ الطوسى يذكر القراءات المختلفة بمعانيها النازلة عليها و بوجوهها و كثيرا يورد القراءات التى لا تعتمد على قول الائمة الذين يعتبر قولهم حجة عنده و عند علماء القراءة ثم يتبع برأيه فى آخر الأمر موجها بالدليل فمثلا عند قوله تعالى : ''أولئك الذين اشتروا الضلالة'' فى آية (١٦) من سورة البقرة يقول : ضمّ جميع القراء الواو من ''اشتروا الضلالة'' و روى السوخردى عن زيد بن اسماعيل بتخفيضه الواو ، و كذلك نظائره نحو ''لتبلون'' ، ''فتمنوالموت''. و روى عن يحيى بن يعمر فى الشواذ أنه كسرها ، شبهها بواو ''لِو'' فى قوله : لو استطعنا فخرجنا ، ضم يحيى بن وثاب واو ''لو'' و فيما ذكرناه شبهها بواو الجمع ، ثم يقول فى آخر الأمر : ''و الصحيح ما عليه القراء لان الواو فى الآية و نظائرها واو الجمع فحركت بالحركة التى تناسبها لإلتقاء الساكنين''

و كذلك قال فى ''صفراء'' من قوله : ''انها بقرة صفراء فاقع لونها'' الآية ٦٩ من سورة ''البقرة'' و من القراء من اختار الوقف على قوله تعالى : ''صفراء '' ، و الصحيح أن الوقف انما يجوز عند تمام النعت كله ، و قال قوم : التمام عند قوله تعالى : ''فاقع'' ثم يقول فى قوله تعالى : ''ان البقر تشابه علينا'' : ''القراء كلهم قرأوا على تخفيف الشين مفتوحة الهاء ، و قرأ الحسن بتشديد الشين و ضم الهاء ، و قرأ الأعمش ''ان البقر متشابه'' ، و كذلك فى مصحف ابن مسعود ، و لكن المعمول على ما عليه القراء و ما هو فى المصحف المعروف''.

و كثيرا ما يتعرض الشيخ الطوسى لمذاهب النحويين من البصريين و الكوفيين فى النحو و الصرف و كثيرا ما يحتكم الشيخ فى مناسبات عديدة الى ماهو معروف من لغة العرب ، و بالرجوع الى الشعر القديم و يستشهد به على ما يقوله ، كما يتعرض للمذاهب الاسلامية عندما تمّس الحاجة اليه يرد قول من لا يتفق معه ، كما رد على أبى عبيدة

فى قوله ''إذ'' زائدة فى قوله تعالى: ''و إذ قال ربك إنى جاعل فى الأرض خليفة'' فيقول ردا عليه: ''و الذى ذكره ليس بصحيح، لأن ''إذ'' حرف يأتى بمعنى الجزاء، و يدل على مجهول من الوقت، و لا يجوز ابطال حرف كان دليلا على معنى فى الكلام إلا لضرورة'' ثم أورد نقضه على ما استشهد به أبو عبيدة من بيتين ص ١٨.

و لا ريب أن ما قدم لنا الشيخ من البحوث اللغوية و الإعرابية المبعثرة فى تفسيره كله هنا و هناك و التى تعتبر ثروة ذاخرة و مرجعا مهما فى بابها أمر يرجع الى ما كان عليه صاحبنا من المعرفة الوا سعة بعلوم اللغة و أشعار العرب معرفة لا تقل عن معرفته بالدين و التاريخ و الفلسفة.

و مما ينبغى ان نتنافل عنه أن الشيخ لايعالج البحوث اللغوية و النحوية من حيث انها مقصودة بالذات بل بصفة أنها ذريعة للتفسير، و بها يتمكن من ترجيح بعض الأقوال على بعض، أو التوفيق بين المتعارضين و حسبك فى هذا الباب أن ترجع إلى الفهارس الطويلة للمباحث اللغوية و القوافى فى آخر كل مجلد من ''التبيان فى تفسير القرآن'' و لله در من رتبها بعناء و مشقة شديدة.

كذلك نرى الشيخ الطوسى يأتى بالأحكام الفقهية و آثارها، ففى مثل هذه المواضع أولا يبين المذاهب المختلفة بدلائلها النقلية و العقلية، ثم يتخلص من ذلك كله برأى يختاره لنفسه و يرجحه بالأدلة العلمية.

و مما يجب ان ننبه عليه كما أشار إليه الشيخ آغا بزرك الطهرانى: أن لشيخ الطائفة فتاوى نادرة لم يروها المتأخرون عنه لقوة الأدلة خلافها، فمنها مسألة تصوير ذوات الأرواح و صنع التماثيل فيقول عند تفسيره لآية ''ثم اتخذتم العجل من بعده و أنتم ظالمون'' (٥١—البقرة): ''أى اتخذتموه إلهاً: لانهم بنفس فعلهم

لصورة العجل لا يصبحون ظالمين لأن فعل ذلك ليس بمحظور و انما هو مكروه ، و ما روى عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه لعن المصورين : معناه : من شبّه الله بخلقه أو اعتقد فيه أنه صورة''.

و كذلك يقولون فى تفسير ''غير المغضوب عليهم و لا الضالين'' من سورة الفاتحة : ''و لايجوز عندنا أن يقول القارئ عند خاتمة الحمد ''آمين'' فان قال ذلك فى الصلاة متعمدا بطلت صلاته لانه كلام لايتعلق بالصلاة ، و لانه كلام لا يستقل بنفسه و انما يفيد اذا كان تأمينا على ما تقدم ، و متى قصد بما تقدم الدعاء لم يكن تاليا للقرآن فتبطل الصلوة ، و ان قصد التلاوة لايكون داعيا فلا يصح التأمين . . .'' (ص ١٦) فهذا خلاف ما قاله أهل السنة و الجماعة و لأجل ذلك قال الشيخ لايجوز عندنا.

و كذلك يعرض أقوالا شتى فى تفسير ''باغ'' ''فى قوله تعالى'' ''غير باغ و لا عاد'' فى آية التحريم (١٧٣ من سورة البقرة) و يذكر فيه قول الرمانى : ان المراد من ''باغ'' : ليس بباغ على إمام المسلمين و كذلك المراد من ''عاد'' ليس بعاد طريق المحقين'' ثم يرد عليه بقوله : ''هذا الذى ذكره غير صحيح ، لأن من بغى على إمام عادل أدى ذلك الى تلفه فهو المعرض نفسه للقتل ، كما لو قتل فى المعركة فانه المهلك لها فلا يجوز لذلك استباحة ما حرم الله ، كما لا يجوز له أن يستبقى نفسه بقتل غيره من المسلمين'' ، و كان هذا طريقه فى سائر الأحكام الفقهية التى يتعرض لها.

و كذلك هو يتعرض للمسائل الكلامية بكل بسط و تفصيل ، و يطبق أصول القواعد موافقا للإمامية على ما يتفق مع الآية ، فاذا ناقش بعض الآراء الكلامية ناقشها بكل ما أوتى من قوة و منعة كما نرى الفهارس الطويلة للردود فى آخر كل مجلد من التفسير. ففى المجلد الأول ردّ على من ردّ عليه فى ثمانية و خمسين موضعا و تكلم فيها

فى المسائل المهمة ، فمثلاً أنه يردّ على من يقول ان لفظة ''الرحمن'' ليست عربية ، و له رد على المجبرة فى قولهم : ''ليس لله على الكافر نعمة'' ، و رد على المعتزلة و المرجئة و اليهود و النصارى فى مسائلهم المعروفة عند أهل العلم و الخبرة ، و كذلك له ردود على ''السدى'' و ''الطبرى'' ، و ''البلخى'' و ''الرمانى'' فى مواضع شتى هذه هى حال المجلد الأول ، و قس على ذلك المجلدات الأخرى .

ثم هناك إشكالات ترد على آية أو حكم مأخوذ منها عند قوم ، فيجيب عنها بكلام مفصل مبسوط ، كما فعل فى دفع اشكال و رد على آية ''فذبحوها و ماكادوا يفعلون'' (٧١ من سوره البقرة) يقول : ''فان قيل لم عنفوا على تأخير هم امتثال الأمر الأول مع أن المراد بالأمر الأول تأخّر ؟ ولِم قال ''فذبحوها وما كادوا يفعلون'' قلنا : ما عنفوا بتأخير امتثال الأمر الأوّل ، و ليس فى الظاهر ما يدل عليه بل كان البيان يأتى شيئا فشيئا كما طلبوه من غير تعنيف . فلا قول يدل على انهم بذلك عصاة ، فاما قوله فى آخر القصة : ''فذبحوها'' . . . الخ ، فانما يدل على أنهم كادوا يفرطون فى آخر القصة . و عند كامل البيان ، و لا يدل على أنهم فرّطوا فى أول القصة ، و يقوى ذلك قوله تعالى بعد جميع الأوصاف : ''الآن جئت بالحق'' أى جئت به على جهة التفصيل ، و ان كان جاءهم الحق مجملا ، و هذا واضح بحمد الله'' ص ١٩ .

و الشيخ الطوسى من عادته أنه يحوّل على كتبه الأخرى التى استوفى الكلام فى المسئلة المتعلقة فيها ، و كذلك أجاب عن أسئلة وردت حول الشفاعة و الإمامة ، و دفع احتمالات وردت على تكرار صفة بقرة بنى إسرائيل فى موضعها .

ثم هناك مواضع قد اختلف فى شرحها الآراء و تشتت فى ادراك

معانيها الأفكار حتى صارت عويصة التفسير و عسيرة التأويل ، منها النسخ فى آية '' ما ننسخ من آية أو ننسها''. و منها المتشابهات و ما المراد بها ؟ المقطعات هل هى آيات مستقلة أم لا ؟ و ما معناها ؟ و ما الذى أراد الله بها ؟ و ما هى الإسراء أكان بالجسد و الروح معا أم بالروح فقط ؟ و أمثال هذا من المواضع المشكلة فى القرآن — و هى ليست بقليلة — فان صاحبنا هذا لا يترك مشكلة إلا و يحلها فى ضوء الآثار المنقولة و الروايات المأثورة و البراهين الفنية و الأساليب الأدبية.

ثم اننا نجد الشيخ الطوسى يأتى فى تفسيره بأخبار مأخوذة من القصص الاسرائيلية رواية عن ''كعب الاحبار'' و ''و هب بن منبه'' و ''ابن جريج'' و ''السدى'' و غيرهم. و الأخبار الاسرائيلية كما يقول العلماء ، على ثلاثة أقسام ، قسم يحكم على صحته مما بأيدينا و يشهد له بالصدق ، و قسم ما علمنا كذبه بما فى أيدينا مما يخالفه ، و قسم ثالث حرّى لنسكت عنه ، فلا هو من هذا القبيل و لا من ذاك فلا نصدقه و لا نكذّبه ، و تجوز حكايته.

فالشيخ عادته فى مثل هذه المواضع أنه ينقل الاسرائيليات بتمامها ثم يثبت ما كان حقا ثابتا فى نظره ، مثلا فى قصة هبوط آدم إلى الأرض قال الله تعالى فى القرآن ''فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما ''فالشيخ أتى بشتى الأقوال فى كيفية خروج آدم و حوّاء من الجنة و نقل فى هذا الصدد رواية عن سعيد بن المسيب انه كان يحلف و لا يستثنى أن آدم لم يأكل من الشجرة و هو يعقل ، و لكن حواء هى التى سقته الخمر حتى اذا أسكر قادته الى تلك الشجرة فأكل ثم يقول : ''فانه خبر ضعيف و عند أصحابنا ان الخمرة كانت محرمة فى سائر الشرائع الخ ص . ٢''

كذلك فى قصة هاروت و ماروت المذكورة فى سورة البقرة ينقل أخبارا اسرائيلية معروفة عند أهل العلم ، ثم يقول : ''ان الروايات

التى فى أن الملكين أخطاءا و ركبا الفواحش فانها أخبار حاد فمن اعتقد بعصمة الملائكة لقطع على كذبها ، و من لم يقطع على ذلك ، جوّز أن تكون صحيحة و لا يقطع على بطلانها ، و الذى نقوله ان كان الملكان رسولين فلا يجوز عليهما ذلك ، و ان لم يكونا رسولين جاز ذلك و ان نقطع ص ٢١'' .

و كذلك عند تفسير الآية : ''و قال لهم نبيهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم و بقية مما ترك آل موسى و آل هارون تحمله الملئكة — الآية .'' يذكر الأقوال المروية عن على و ابن عباس و وهب بن منبه و عطاء و السدى فى تأويل السكينة و مصداقها ثم يقول : ''و أقوى هذه الأقوال أن يحمل انه كان فيه ما يسكنون اليه ، و يجوز ان يكون ذلك عصا موسى و الرصاص و غير ذلك مما اختلفوا فيه بعد ان يكون فيه ما تسكن النفس اليه ، لأنه تعالى بين ان فيه سكينة ، و هى فعيلة من السكون ، و لا يقطع بشيئ من ذلك إلا بدليل يوجب العلم ص ٢٢'' .

و بالجملة فمالنا أن نقول فى تفسير الشيخ الطوسى إلا ما قال أبو محمد عبد الله بن أحمد الفرقانى فى تاريخه — كما نقله الأستاذ محمد حسين الذهبى فى كتابه ''التفسير و المفسرون'' عن الداؤدى فى ابن جرير الطبرى حيث قال : ''ان محمد بن جرير الطبرى قد جوّد تفسيره، و بيّن فيه أحكامه ، و ناسخه ، و منسوخه ، و مشكله ، و غريبه، و معانيه ، و اختلاف أهل التأويل و العلماء فى أحكامه و تأويله ، و الصحيح لديه من ذلك و اعراب حروفه ، و الكلام على الملحدين فيه ، و القصص ، و أخبار الأمة و القيامة ، و غير ذلك من الحكم و العجائب كلمة و آية آية . . . فلو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب كل كتاب منها يحتوى على علم مفرد و عجيب مستفيق لفعل ص ٢٣''

و لا بد ان نسجل أخيرا أن الشيخ كان من أعاظم أساطين و أئمة الإمامية. و من الطبيعى أن بذل جهده فى تحقيق العقائد الاساسية لقومه، و إثباتها بالدلائل و الحجج النقلية والعقلية ، و مع ذلك قد تحاشى الشيخ بقدر وسعه و طاقته من أن يجعل تفسيره لفرقة أو طائفة خاصة فيكون مظهرا خاصا للعصبية الطائفية، و بهذا السبب قد جاء تفسيره هذا كنزاً ثمينا للحقائق العلمية و المعارف الدينية. و حق لكل من يريد فهم القرآن و التدبر فى معانيه من أى فرقة كان ان يستفيد من هذا التفسير الجليل على قدر استطاعته و أهليته.

و مع ما سبق منا فى هذا الصدد يجدر بنا أن نقول: إنه هناك مواضع فى تفسير الشيخ للقرآن لا نتفق فيها مع رأيه و احتكامه و نجد استدلاله ضعيفا غير كاف لإثبات ما ادعاه.

فمثلا حينما يتكلم فى تفسير آية ''و كذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس'' يبطل قول من قال من العلماء الكثيرين : ان الآية دليل على ان الاجماع حجة— و يقول هو فى استدلاله : ''ان الله وصفهم بأنهم عدول و بانهم شهداء و ذلك يقتضى أن يكون كل واحد عدلا و شاهدا لان ''شهداء'' جمع ''شهيد'' ، و قد علمنا أن كل واحد من هذه الامة ليس بهذه الصفة فلم يجز ان يكون المراد ما قالوه ، على أن الأمة إن أريد بها جميع الأمة فقد بينا ان فيها كثيرا ممن يحكم بفسقه بل بكفره فلا يجوز حملها على الجميع - انتهى كلامه''.

أقول : ان لفظ ''كم'' فى ''جعلناكم'' ''كلفظ م لكل'' فكما قد يراد بالكل الكل الإفرادى و قد يراد به الكل المجموعى و هذا بحسب المقام و سوق الكلام ، فكذلك قد يراد بلفظ ''كم'' الافراد كلهم من غير استثناء و قد يراد به الجماعة من حيث المجموع و حينئذ الحكم لا يكون مسبوقا للافراد بل للجماعة فقط ، فعندنا أن الحكم

فى الآية المذكورة ليس للافراد بل هو للجماعة و معناه أن المسلمين فى العالم من حيث القوم و الأمة جعلوا شهداء للناس ، و الخطاب فيها عام شامل لجميع المسلمين من حيث أنهم مسلمون و مؤمنون ، فلا حاجة الى تخصيصها بجماعة دون جماعة .

و أما قول الشيخ ''بأن فيها كثيرا ممن يحكم بفسقه بل بكفره فلا يجوز حملها على الجميع''. فاقول ان العشيرة ليست بقلة الافراد و كثرتهم بل المقصود و المراد بيان أهمية الدين الحقيقى الذى بعث به النبى صلى الله عليه و سلم و الذى حمله المسلمون من حيث كونهم أمة وسطا. و لا شك ان كون المسلمين أمة وسطا موقوف و منحصر على كونهم أمة وسطا. و لا شك ان كون المسلمين امة وسطا موقوف و منحصر على كونهم مسلمين حقيقة أى متمسكين بالقرآن و السنة فى فى عقائدهم و أعمالهم فان كانوا فنعم و إلا فلا .

و كذلك نجده حين كلامه فى تفسير آية ''لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين'' يقول : ''كل ذلك يدل على ان ينبغى ان يعاملوا بالغلظة و الجفوة ، دون الملاطفة و الملاينة إلا ما وقع من النادر و العارض من الآى ، ص ٤ ٢''.

فالذى نراه فى هذا المقام هو أن الحكم فى مثل هذه الآيات ليس بمطلق و لاعام ، بل هناك أحوال و ظروف مختلفة ، فمنها حالة الأمن ، و منها حالة الحرب ، و لكل من هذه الأحوال و الظروف أحكام خاصة نجدها بأجمعها فى سورة الممتحنة ، فأما كحالة الحرب و الكفاح فقال تعالى فيه : ''يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى و عدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة و قد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول و إياكم ان تؤمنوا بالله ربكم الآية''. و كذلك آية أخرى فى نفس السورة و هى : ''انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين و أخرجوكم من دياركم الآية''.

و أما حالة الأمن و الصلح و الموادعة فقد قال تعالى فى آية متصلة بهذه الآية الأخرى و قبلها : ''لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين و لم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم و تقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين : الآية .

فالبر والقسط المأمور بهما فى هذه الآية يكونان مع غير المسلمين .

هذا ما تيسرلى لأقدم اليكم أيها السادة الأعلام من مقالة متواضعة . لأساهمكم فى تجليل من هوله من عظيم على الاسلام و المسلمين كلهم .

مهما كانوا و أينما سكنوا

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.